03/04/2026

خطاب استقبال قداسة البطريرك المسكوني برثلماوس الأول، بطريرك القسط



خطاب الكلي القداسة رئيس اساقفة القسطنطينية روما الجديدة و البطريرك
المسكوني برثلماوس الأول، بمناسبة انضمامه كعضو منتسب في أكاديمية
العلوم الأخلاقية والسياسية، والذي ألقي في 30 مارس 2026

حضرة السيد مستشار معهد فرنسا،

حضرة السيد الرئيس والسيد الأمين الدائم لأكاديمية العلوم الأخلاقية
والسياسية،

السيدات والسادة أعضاء الأكاديمية،

أصحاب الغبطة والسيادة،

ممثلو الأوساط الدينية والسياسية والاقتصادية والثقافية الكرام،

أصدقاؤنا الأعزاء،

نشعر بالغ الشرف — ونؤكد لكم ذلك — لانضمامنا اليوم إلى جمعكم الموقر،
الذي يجسد على نحو مثالي التقليد الرفيع للفكر الفرنسي، لا سيما حين

يُسخّر في خدمة مبادئ الأخلاق وقضايا الخير العام.

لقد تأثرنا كثيرًا بكلمة الترحيب التي وجهتموها إلينا، عزيزي تييري دو مونتبرياك. إن الصورة التي رسمتموها عن الأرثوذكسية تدل على سعة الاطلاع الكبيرة التي يتمتع بها المعهد الفرنسي للعلاقات الدولية، الذي أسستموه وتديرونه. أما الصورة الودية التي قدمتموها عن شخصنا، فإننا نتلقاها كحافز لكي نكون جديرين بها.

ومن بين الأعضاء العاملين في هذه الأكاديمية عدد من أصدقائنا أيضًا، وفي مقدمتهم ذاك الرئيس الحالي، الحاخام الأكبر لفرنسا حاييم كورسيا، الذي نحييه بحرارة. ومن بين الأعضاء الأجانب المنتسبين، سنسعد بمواصلة حواراتنا الطويلة مع — على سبيل المثال لا الحصر — السيدة الوزيرة دورا بلكوياني، وسعادة زكي أنور نسيبة، وصاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال، وجلالة الملك تشارلز الثالث. إننا نتطلع كثيرًا إلى اللقاءات التي ستُتاح لنا في هذا المكان.

غير أنه أيًا من هذه الأفراح الأيضاوية تلك التي أُتيحت لنا لنكرّم سلفنا في هذا المقعد، الباب الجليل بندكتوس السادس عشر، طيب الذكر.

إن إسناد هذا المقعد إلينا، نحن بطريرك القسطنطينية المسكوني، يضفي على هذه اللحظة معنى يتجاوز بكثير حدود الرضا الشخصي. إذ يصبح هذا المقعد مكانًا لذاكرة حيّة، وفي الوقت نفسه علامة رجاء: ذاكرة لحياة كرّست للبحث عن الحقيقة والعقل، ورجاء في أن يستمر طريق اللقاء الحي الذي حظينا بنعمته معه، متجاوزًا حدود الزمان والمكان.

وتكتسب هذه الخلافة بُعدًا رمزيًا خاصًا، فهي لا تعبّر فقط عن استمرارية تقليد أكاديمي، بل تكشف أيضًا عن الرابط الروحي بين روما والقسطنطينية — بين روما القديمة وروما الجديدة. وهكذا يغدو هذا المقعد فضاءً للحوار، حيث لا يتجمد الإرث المشترك في الماضي، بل يتجدد في مسؤولية تجاه الحاضر والمستقبل.

إذا أردت، يمكنني أيضًا صياغتها بأسلوب كنسي أكثر رسميّة وأقرب إلى اللغة الليتورجية.

إنه في هذا الأمر بالذات تكمن، بالنسبة إلينا، مسؤولية لا تقتصر على تكريم هذا المكان فحسب، بل على أن نسكنه بكل ملء. إذ لا يتعلق الأمر بمجرد واجب أكاديمي، بل بضرورة روحية: أن نجعل وحدة الفكر والمسؤولية تجاه العالم مرئية، من خلال التطلع إلى مثال إنسان جسّد هذه الوحدة على نحو استثنائي.

وإذ نستحضر ذكراه هنا بصورة خاصة، فإن ما يلتقي ليس مجرد شخصين، بل، إذا جاز التعبير، «روما الاثنتان» — القديمة والجديدة — تدخلان في حوار متجدد.

وهكذا يغدو هذا المكان فضاءً للقاء حي، حيث لا يفصل التاريخ بل يوحّد، وحيث يجد الإرث المشترك تعبيرًا جديدًا.

لقد أتحتم، على هذا النحو، أن تواصل «روما الاثنتان» ورئيساها الكنسيان، تحت هذه القبة العريقة، حوارهما حتى بعد الموت، ما دامت حياة فينا ذكرى من كان ولا يزال بالنسبة إلينا أخًا عزيزًا جدًا في المسيح.

ومن هنا، يبدو لنا من العدل أن نستحضر هنا لا أعماله فحسب، بل أيضًا وحدته الداخلية والهوته الخصيب، لهذا الفكر والراعي العظيم.

إن سيرة الخليفة الخامس والستين بعد المئتين للرسول بطرس على كرسي روما تشهد على اتحاد ناردر بين التأمل والعمل. وُلد جوزيف أولي سوس راتزينغر عام 1927، في أوروبا ممزقة بين حربين عالميتين. ومنذ سن مبكرة، وجد هذا الشاب المسيحي العميق الإيمان نفسه في مواجهة أيديولوجيات شمولية طبعت عصره — النازية والشيوعية — والتي تركت آثارها الجارحة وقسّمت وطنه.

اختار طريق الإكليريكية، حيث قادته دراسة اللاهوت والفلسفة واللغات الكلاسيكية إلى مواجهة مسألة الشر في التاريخ. وبعد الحرب، بدأ تكوينه الكهنوتي، منفتحًا في الوقت ذاته على العالم الفكري لعصره: فكان إلى جانب دراساته يقرأ هايدغر وياسبرز وبوبر، كما كولديل وبرانوس وموراك. وأمام لاهوت مدرسي جديد متجمّد، راح يبحث عن الينابيع الحيّة: الكتاب المقدس، والآباء، والليتورجيا.

وهكذا بلغ حدسًا سبق أن مهدت له شخصيات كبرى من «اللاهوت الجديد» ومن الفكر الأرثوذكسي: عودة إلى الآباء ليست هروبًا إلى الماضي، بل اكتشافًا جديدًا لينابيع الحيّة للإيمان؛ وقد تجلّى ذلك، في الجانب الكاثوليكي، لدى هنري دو لوباك وإيف كونغار، وفي الجانب الأرثوذكسي لدى اللاهوتيين الروس في المنفى، جورج فلوروفسكي وفلاديمير لوسكي، الذين وجدوا ملجأ في الغرب ووقفوا، بكلمتهم وحياتهم، في وجه النظام الشمولي للشيوعية السوفياتية وتدخلاته في حياة الكنيسة.

إن وضوح الفكر اللاهوتي لدى جوزيف راتزينغر قاده إلى أن يصبح مستشارًا للكاردينال جوزف فريينغز خلال المجمع الفاتيكاني الثاني، حيث شارك في النقاشات الحاسمة وأسهم في تجديد البنى الكنسية. وهناك ظهر منذ ذلك الحين ما سيطبع حياته كلها: أن كل إصلاح حقيقي لا يمكن أن ينبع إلا من عمق التقليد.

ونحن أنفسنا نتذكر تلك المرحلة، حين كنا خلال سنوات دراستنا في روما، في المعهد الحبري الشرقي، عام 1963، شهودًا على الزخم الفكري والروحي لذلك الحدث التاريخي. وعلى الرغم من انتمائنا إلى التقليد الأرثوذكسي، فقد تابعنا باهتمام عميق التطورات اللاهوتية التي رافقت المجمع. وفي تلك الأجواء، أدركنا بالفعل أهمية فكر يجمع، على مثال راتزينغر، بين الأمانة للتقليد والانفتاح على تجدد حي.

إن الكاهن الناضج والبابا بندكتوس السادس عشر يلتقيان في محبة الحياة الفكرية، كما في الدفاع عن الحياة الروحية. ويمكننا أن نعترف بأننا نفهم نحن أيضًا حياة أخينا الموقر بندكتوس السادس عشر ضمن هذه الوحدة الداخلية نفسها: لا كسلسلة مراحل منفصلة، بل كمسيرة متواصلة تحملها وحدة عميقة بين الفكر والإيمان.

وتتجلى هذه الوحدة أيضًا في عمله كمعلم ومرشد روحي لجيل كامل. فبصفته أحد مؤسسي مجلة Communio، جمع أصواتًا من بلدان وتقاليد مختلفة، وصاغ فكرًا لا يزال تأثيره قائمًا — والسيما من خلال شخصيات مثل جان-لوك ماريون وريمي براغ، الحاضرين أيضًا في هذه الأكاديمية.

عندما قام البابا بولس السادس في عام 1977 بتعيينه رئيس أساقفة لمونشن

وفرايزين، ثم رفعه إلى رتبة الكاردينالية، ظهرت الخطوط الداخلية لحياته وضوح: فالعالم اللاهوتي يدخل في خدمة الرعاية الرعوية للكنيسة من دون أن يتوقف عن كونه لاهوتياً. لقد أصبحت شعاره — Cooperatores veritatis، «شركاء الحق» — مفتاح وجوده كله. وفي عام 2005، قاده هذا الطريق إلى كرسي رومـا. وقد تميز بابويته بالوضوح العقلي، والحيوية الداخلية، والتقوى العميقة؛ وحتى وفاته في عام 2022، بقي رجل صلاة.

وهكذا، فإن حياته تنتمي في الوقت نفسه إلى التاريخ وإلى المستقبل: باعتباره فاعلاً للتجديد اللاهوتي، ومفكراً متجذراً في التقليد، وراعٍ يولي اهتماماً لقضايا العالم.

وبعد أن رسمنا ملامح الشخصية الفكرية لهذا الباب المعلم، لن نحاول هنا تتبع تسلسل أحداث بابويته، بل نرمي إلى إظهار بعض الخطوط الإرشادية لفكره، المتعلقة بالقضايا الأخلاقية والسياسية التي تجمعنا اليوم.

لقد شهد الباباوات بندكتوس السادس عشر وفرنسيس طريقة فريدة أن الإيمان والعقل لا يتعارضان، بل يدعمان بعضهما بعضاً ويضيئان بعضهما البعض. ففي سلسلته يسوع الناصري، قدم قراءة مركزية على المسيح للكتاب المقدس، مفتحاً طريقاً حيث لا تستبعد البحث العلمي والإيمان بعضهما البعض، بل يلتقيان.

وقد توجّه عمله اللاهوتي، سواء الكتابي أو الآبائي، كلياً نحو هذه القناعة الأساسية التي لم يتوقف عن تكرارها: أن الحق ليس فكرة مجردة، بل شخص — المسيح نفسه، «الطريق والحق والحياة». وفي وفائه للإرث المشترك آباء الكنيسة في الشرق والغرب، كان يؤكد أن الكلمة المتجسد تشكل مبدأ فهم العالم والتاريخ.

ولهذا، رأى بندكتوس السادس عشر أن الأزمة الحالية في مجتمعاتنا ليست أزمة أخلاقية في المقام الأول، بل أزمة حقيقة. وقد امتدت تحليلاته للنسبية إلى علم الإنسان ونظرية المعرفة: فعندما يُختزل الحق إلى بناء اعتباطي، يتحول الإيمان نفسه إلى تجربة ذاتية. وكانت إجابته تقوم على أنطولوجيا اللوغوس، باعتباره لقاءً تاريخياً بين الوحي الإلهي والعقل البشري، مرفوعاً، ومتحولاً، ومكتملاً بالتجسد. وعلى الصعيد العلمي، قاده ذلك إلى رفض أي محاولة «لتفكيك الهيلينية» في المسيحية، وإلى التأكيد، على العكس، على الوحدة العميقة بين تفرد الإله الكتابي وكيان الفكر اليوناني. وعلى الصعيد الرعوي، كان يذكّر بحزم أن الأزمة الروحية في عصرنا تنبع من نسيان الله، وأن إعادة اكتشاف البعد المتعالِ للوجود البشري شرط أساسي لكرامة الإنسان وسلام العالم.

وهنا بالذات، سيداتي وسادتي، تتلاقى فكره بطريقة مدهشة مع التقليد الفكري الذي يلهم هذه الأكاديمية، والذي وجد في فرنسا تعبيراً ذا دلالة خاصة. إن القيم العظيمة التي نشأت عن الثورة الفرنسية — الحرية، المساواة، الإخاء — لا يمكن أن تستمر في التجريد فحسب؛ فهي تتطلب أساساً ثابتاً يتجاوز المتغير ويضمن الكرامة غير القابلة للانتزاع للشخص البشري.

فبدون الجذور في الحقيقة، تصبح الحرية اعتباطية، وتتحول المساواة إلى

تسوية، والإخاء إلى مجرد دعوة أخلاقية بلا قوة موحدة. ومن هذا المنطلق، تذكر فكر بندكتوس السادس عشر بأن هذه المثل العليا تجد أساسها النهائي ليس فقط في الاتفاقيات الاجتماعية، بل في حقيقة الإنسان نفسه، المخلوق على صورة الله والمدعو لأن يصبح، من خلال الثيوسيس، انعكاساً للإلهي في التاريخ.
وهكذا، تصبح المهمة الملقاة على عاتقكم، أيها الأعضاء الكرام في هذه الأكاديمية، والتي أصبحنا اليوم جزءاً منها، مسؤولية عظيمة: البحث الدؤوب عن حقيقة لا تفرّق بل توحّد؛ لا تسيطر بل تخدم. لأن الحقيقة من هذا النوع وحدها قادرة على تأسيس نظام عادل وفتح أفق لمستقبل حيث تُعاش الحرية والمساواة والإخاء بالفعل، لا مجرد الإعلان عنها.
لقد سعى بندكتوس السادس عشر إلى وضع الإخلاص والإبداع في خدمة كنيسة متجددة. فحتى وهو جوزيف راتزينغر، قد ترك بصمته، خلال المجمع الفاتيكاني الثاني، على نصوص أساسية مثل لومين جنتيوم، دي فيروم، وغاودیوم إي سبيس، لا سيما فيما يتعلق بفهم الكنيسة كشعب الله، والوحي كلقاء حي بين الله والإنسان، وكذلك الحوار المسؤول للكنيسة مع العالم. والحقاً، وبصفته باباً، طور هذه الرؤية: ففي Deus Caritas Est عرض الكنيسة كتجسيد للمحبة الإلهية؛ وفي Spe Salvi اعتبر الرجاء جواباً على أزمة الحداثة؛ وفي Caritas in Veritate أشار إلى ضرورة وجود معايير أخلاقية للاقتصاد.
وليس من قبيل الصدفة أننا نستحضر هنا خطاباته في 2008 في كلية لوغاودونستاغ برلمان في باريس، و2010 في وستمنستر أبي، و2011 أمام البوندستاغ الألماني. فهذه الأماكن لا تمثل مجرد دول، بل أبعاد الحضارة الأوروبية الأساسية: الثقافة والسياسة والقانون. ففي باريس، ذكّر بأن الثقافة الأوروبية وُلدت من البحث عن الله؛ وفي وستمنستر أبرز دور الدين في الفضاء العام؛ وفي برلين أكد أن القانون يجب أن يقوم على الحق.
غير أن هذا الكل لا يُظهر عمقه إلا في ضوء جذوره: أثينا، وروما، وأورشليم. ففي أورشليم تتجلّى الوحي الإلهي والكرامة الإنسانية للإنسان المخلوق على صورته؛ وفي أثينا يظهر السعي العقلي وراء الحقيقة والمعنى؛ وفي روما يبرز نظام القانون والحياة المدنية. وفي لقاء هذه الإرث الثلاثة، كان بندكتوس السادس عشر يدرك الأصل الأعمق لأوروبا: وحدة الإيمان والعقل والقانون.
ومع ذلك، دعونا نضيف أن هذا المشهد يظل ناقصاً من دون القسطنطينية، «روما الجديدة». فهناك تم الحفاظ على التقليد الآبائي ونقله بطريقة حية — وهو التقليد الذي ترك أثراً عميقاً في فكر بندكتوس السادس عشر. ففي كتيباته التعليمية حول آباء الكنيسة، أبرز بشكل خاص الصلة الدائمة آباء قبادوقيا والقديس يوحنا ذهبي الفم، حيث تتلاقى فيها حقيقة الإيمان، والعمق اللاهوتي، والمسؤولية تجاه الإنسان.
وفي هذا التقليد الحي، نقف نحن أيضاً، كخلفاء للقديس يوحنا ذهبي الفم على كرسي القسطنطينية. إن شهادته تذكّرنا بأن اللاهوت لا يمكن فصلها عن الاهتمام بالآخر، وأن الحقيقة تُختبر في وحدة العبادة والمحبة العملية. ونحن نتذكر بامتنان إعادة رفاته في عام 2004 من روما إلى القسطنطينية، كرمز روحي للمصالحة بين كنيستين.

لقد أظهر آباء قبادوقيا، والأخص القديس باسيل الكبير، أن معرفة الله لا تنفصل عن المسؤولية تجاه القريب. وهكذا تصبح القسطنطينية مكانًا يتجلى فيه اتحاد الحقيقة والليتورجيا والمسؤولية الاجتماعية — اتحاد أساسي للتوازن الروحي لأوروبا.

وفي هذا السياق، لا يمكننا أن نتجاهل بعدًا نحمله في قلوبنا، ونتشارك فيه بعمق مع أخينا المولق بندكتوس السادس عشر: مسؤولية الإنسان تجاه الخليقة. فالأزمة البيئية في عصرنا ليست مجرد مسألة تقنية أو سياسية أو اقتصادية، بل هي في جوهرها أزمة روحية — أزمة في العلاقة بين الإنسان والعالم والله.

لقد أكدنا مرارًا أن أي مساس بالبيئة الطبيعية يمثل في الوقت نفسه مساسًا بنظام الخلق الإلهي. وفي كلمتنا، بدعوة من بندكتوس السادس عشر، في كنيسة سيستين عام 2008، ذكرنا أن الإنسان لا ينبغي أن يعتبر العالم مجرد أداة في متناول يده، بل هبة، وسرّ من أسرار حضور الله. وعندما تختفي هذه النظرة الإلهية، يتحول العالم من مكان للشكر إلى ساحة للاستغلال.

وعلى الرغم من رفضه لأي توظيف أيديولوجي للإيمان، لم يتخل بندكتوس السادس عشر يومًا عن الحوار مع العالم في المسائل الأخلاقية والسياسية، بوصفه لا تسعى للفرض، بل للشهادة بمحبة الخالق لمخلوقه. وهذا لم يمنعه من التعبير بوضوح عن خطورة الوضع المعاصر.

ففي حوار مع يورغن هابرماس عام 2004، لاحظ بقلق آخذ العالمية التي ساهمت فيها «ثقافتان عظميان في الغرب: الإيمان المسيحي والعقلانية الدنيوية».

فماذا كان سيقول اليوم في مواجهة الفوضى المتزايدة في النظام الدولي؟ من المرجح أنه كان سيذكّرنا بأن الأزمة في جوهرها أزمة لاهوتية. فاختفاء الله الحي وتلاشي صورته — المستبدلة بالفراغ أو القناع أو الأصنام — يحرم الإنسان من ديناميكية وجوده على صورته، ويزيد من هشاشة كيانه، ويضعف قدرته على التوبة، ويعمّق فيه دوار العدمية. إذ بدون الحق، تتحلل الحرية.

وهذا الحدس يدعو اليوم إلى تأمل متجدد، في وقت تُطرح فيه مسألة الحقيقة في سياق تحوّل تكنولوجي غير مسبوق. ففي عالم تتدخل فيه الذكاء الاصطناعي بشكل متزايد في عمليات المعرفة واتخاذ القرار، تبرز إغراءات كبيرة لتخفيض الحقيقة إلى مجرد وظيفة أو حساب.

غير أن حقيقة الإنسان تتجاوز الخوارزميات؛ فهي علاقة ووحي ومعنى. وعندما تُختزل الحقيقة إلى منتج تقني، يصبح الإنسان نفسه عرضة للتحويل إلى موضوع. وهنا أيضًا، يظل تحذير بندكتوس السادس عشر ذا صلة كاملة: فالعقل الخالي من الحقيقة يفقد اتجاهه، والحرية بلا حقيقة تدمر نفسها.

ومن هنا، يُطلب منا اليوم أن نربط التقدم التقني بمسؤولية متجددة تجاه الحقيقة — حقيقة لا تُصنع، بل تُستقبل؛ لا تُهيمن، بل تُطلب؛ ولا تحل محل الإنسان، بل تؤكد كرامته.

وهكذا، فإن المهمة التي أوكلت إلينا من قبل هذه الأكاديمية تأخذ أيضًا بعدًا شخصيًا عميقًا. ما حاولنا التعبير عنه مفهوميًا، قد عايشناه في اللقاء معه. ونحتفظ بالذكرى المضيئة لأخوّة تأسست على الاحترام والثقة والرغبة

الصداقة في المضي قدمًا على طريق الحوار بين روما والقسطنطينية.
ونتذكر على وجه الخصوص عام 2006، عندما، في السياق الحساس الذي أعقب خطاب راتيسبورن، قام البابا بندكتوس السادس عشر بزيارة إسطنبول. وإذا اعتُبرت هذه الرحلة بمثابة إشارة إلى العالم الإسلامي، فإنها كانت أيضًا جزءًا من التقليد الكنسي للقاءات الأخوية بين روما والقسطنطينية.
لقد سعدنا باستقباله في الفاتيكان في 30 نوفمبر. وكان يومًا ذا كثافة روحية كبيرة: صلاة مشتركة، تبادل قبلة السلام، وتجديد الالتزام بمواصلة الطريق الذي فتحه بولس السادس وأثيناغوراس.
لقد استطاع جوزيف راتزينغر أن يجمع، بطريقة فاردة، بين الذكاء والروحانية، الإخلاص والانفتاح، الوضوح والتواضع. لقد أصبحت حياته شهادة على وحدة اللاهوت والصلاة، الحقيقة والمحبة.
ويظل إرثه قبل كل شيء حبّ الحق — حقّ يوحّد، ويحلّ، ويُنير. وستستمر أعماله في جني الثمار، حتى وإن افتقدنا صوته وحضوره.
ولكننا نؤمن بأن الحياة التي تُعاش في الحق لا تنطفئ في الصمت، بل تستمر في النور، وفي صلاة المؤمنين، وفي الرجاء.
وهذه أيضًا مسؤولية الكرسي الرسولي إلينا: متابعة هذا الحوار بروح الحق والمحبة، في خدمة وحدة الكنيسة وسلام العالم.
اسمحوا لي، قبل أن أتخذ مقعدي، أن أحيّي أخانا بندكتوس وقف التقليد البيزنطي:
Αἰωνία σου ἡ μνήμη, ἅγιε Ἀδελφέ,
«لتكن ذاكرتك أبدية، أيها الأخ القديس!»

البطريركية المسكونية باللغة العربية